الطبيعة المرأة والمرأة الطبيعة فى الشعر العربى

بقلم : الدكتور حسن فتح الباب

الطبيعة والإنسان وحدة واحدة ، أو هما وجهان لشئ واحد هو الخَلْق . وقد تواترت الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه وبديع صنعه :

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

(صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون) سورة النحل الآية ٨٨ .

(الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) السجدة ٧

وقد ارتبطت حياة الإنسان بالطبيعة منذ نشأته الأولى ، فقد أنزل الله سبحانه آدم وحواء فى الفردوس ، ثم أخرجهما منها بعد أن عصيا أمره ووسوس لهما إبليس أن يأكلا من الثمرة المحرمة . ولكن رحمة الله شاءت أن تكون الأرض التى عاش فيها البشر حافلة بالجنات وإن كانت تختلف عن الفردوس بما فيها من شرور الناس . وهكذا ولد الخلق وتناسلوا فى أحضان الطبيعة المونقة من أشجار وظلال وثمار مختلف أنواعها ومذاقها ، تسر الخاطر بجمال تكوينها وتقر بمنظرها العيون .

وكان من الطبيعى لكى تعمر الأرض بالإنسان أن يتم التزاوج بين بنى آدم وبنات حواء ، وأن تكون عاطفة الحب من أهم دوافع هذا التزاوج . ومن

ثم نشأت هذه العاطفة السامية منذ بدء الخليقة ، وأصبحت كلمة الحب من أكثر الكلمات دورانا على الألسنة ، وغدت معانيه من أكبر وأكثر المعانى التى تخطر فى الأذهان ، فهو يعم التاريخ كله وتسير بقصصه الركبان .

فلا غرو أن يتغنى الشعراء بالحب ويتنافسوا فى التعبير عنه ، فيقول أمير الشعراء شوقى فى مسرحيته (مصرع كليوبترا) التى دارت حول العشق الذى جمع بين كليوبترا ملكة مصر وأنطونيو القائد الرومانى :

الحياة الحب والحب الحياة ... هو من دوحتها سر النواه

غننا فى الحب أو غنى بنا ... نحن فى الحب حديث بعدنا

من يكن فى الحب ضحى بالكرى ... أو بمسفوح من الدمع جرى

نحن ضحينا له ملك الثرى

ويعد باب الغزل فى ديوان الشعر العربى أكبر الأبواب وبما أبدعها أيضا ، ويطلق عليه أحيانا التشبيب بمعنى ذكر محاسن المرأة ، كما يطلق عليه النسيب الذى كان يستهل به الشعراء قصائدهم (١) ، كما يهدأون أحيانا بالبكاء على الأطلال ، وهى الدمن العافية التى تركها الأحباب وخاصة المرأة التى يحبها الشاعر خلفهم ، بعد أن فكوا حبال الخيام وحلوا عنها ، ابتغاء النزول فى مكان آخر يلتمسون فيه الكلأ والماء .

وقد عُرف العرب بين الشعوب قاطبة بالعشق المشبوب وحرارة الغزل . وكان حبهم عفيفا فى معظم حالاته ، وكان شعراء قبيلة بنى عذرة أعفهم وأنبلهم

فى العلاقة بالمرأة المحبوبة حتى أطلق عليهم اسم الشعراء العذريين ، وألف الباحثون الأقدمون والمحدثون عشرات الكتب التى ضمت سير حياتهم وأشعارهم وأحوالهم فى العشق التى تباينت بين العشق المألوف فى كل زمان ومكان ولدى البشر عامة وبين الحب الذى يورث الجنون ، فسمى قيس بن الملوح مجنون ليلى[٢] ، كما نسب جميل بن معمر إلى حبيبته بثينة ، وكثير إلى حبيبته عزة ، وقيس بن ذريح إلى حبيبته لبنى[٣] .

وقد اشتهر كثير من الشعراء الفرسان بالعشق أيضا ، فكانوا من كبار العشاق مثلما كانوا مثلا عليا فى الفروسية ، ومن أقدمهم عنترة بن شداد العبسى صاحب ابنة عمه عبلة التى يفوح عبيرها فى معلقته ، وأبو فراس الحمدانى ، ويمكن أن يعد المتنبى من هؤلاء إذ كان محاربا فى جيش سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وقيل إنه أحب أخت سيف الدولة وإن لم يصرح باسمها فى شعره .

استلهام الغزل بالمرأة من الطبيعة

من أبرز الخصائص الموضوعية والتعبيرية التى تتسم بها قصائد الحب عند العرب استلهام الشعراء أوصاف النساء الحبيبات من الطبيعة بما عليها من حيوانات برية مثل الغزلان والظباء والمها (البقر الوحشى) . فهم يشبهون عيون الحسان وخصورهن النحيلة بعيون الغزلان وخصورها ولفتاتها وخطواتها أحيانا . وقد ظل هذا التقليد الفنى ساريا منذ عصر ما قبل الإسلام حتى الآن ، ولم يختلف إلا نسيج القصيدة وتشكيل صورها . فإذا بدأنا بالعصر الجاهلى وجدنا طرفة بن العبد يضيف الى أوصاف محبوبته بعض أوصاف الظبى ،

فيقول إنها سوداء العين مثل ظبى يأكل ثمر الأراك نَفْضا بفيه ، وهى تتقلد سمطين (عقدين) أحدهما فوق الآخر ، سمطا من اللؤلؤ وسمطا من الزبرجد .

ثم يقول إن هذه الفتاة حسنة التلفت والنظرات كأنها مهاة (بقرة وحشية أو ظبية) مذعورة على ولدها ، فهى إن رعت مع صواحب لها خذلتهن واجتنبتهن ، ولاتزال متلفتة إلى ناحية ولدها ، وهذه الفتاة متنعمة كالمهاة التى ترعى البرير (ثمر الأراك) ، وتدخل من خلال أغصان الشجر فتكون كأنها مرتدية بها :

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن ... مظاهر سِمْطى لؤلؤ وزبرجد

خذول تراعى ربرباً بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدى

وها هو أمير الشعراء شوقى يستهل إحدى قصائده المشهورة ، وهى فى المديح النبوى ويعارض بها قصيدة الإمام البوصيرى ، بتشبيه محبوبته بالريم وهو الظبى الخالص البياض أو ولد الظبى ، إذ يقول :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... يا ويح قلبك بالسهم المصيب رمى

كما يقول فى مسرحية (مجنون ليلى) على لسان قيس :

رب فجر سألتـــــه هل تنفست في السحـــــر
وغزال جفونـــــه سرقت عينك الحـــــور

ويتردد وصف المحبوبة بالغزال أو الظبى فى قصائد الأندلسيين وموشحاتهم ، فيقول شاعرهم :

ياغزالا جفونـــــه علمت عينىَ السهـــــر

ويشيع أيضا تشبيه الشعراء عيون النساء بعيون المها وهى البقر الوحشى (جمع مهاة) لسوادها واتساعها . فيقول على بن الجهم الشاعر العباسى :

عيون المها بين الأراكة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولاأدرى

فإذا بلغنا العصر الحديث بحثنا عن الأشعار التى ورد فيها ذكر المها بمعنى النساء تبينا استمرار هذا التشبيه ، فيقول محمود سامى البارودى رب السيف والقلم ، وقد برّح به الحنين الى مصر وهزه الشوق إلى أحبّته فيها ، وذلك فى أثناء منفاه فى سرنديب (جزيرة سرى لانكا الآن) :

محا البين ما أبقت عيون المها منى وشيبت ولم أقض اللبانة من سِنّى
فإن أك فارقت الديار فلى بها فؤاد أضلّته عيون المها عنّى
بعثت به يوم النوى إثر لحظة فأوقعه المقدار فى شرك الحسن (٤)

وأبرع الشعراء فى هذا التصوير هو ابن الرومى الشاعر الذى وصفه الكاتب البليغ عباس محمود العقاد بأنه الطائر الغرِّيد فى غير سربه ، لتفرده بقوة التشخيص والتجسيد من طريق استعمال التشبيهات والاستعارات ، سواء فى تشبيهه المرأة بالطبيعة أو باستعارته صفات المرأة للطبيعة . ومن النوع الأول قصائده فى وصف المغنيات مثل قوله فى وصف (وحيد) المغنية التى سلبت لُبَّه بجمالها وحسن صوتها :

غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبى مقلتان وجيد

فهو يشبه قدها الأغيد المشوق فى الشطر الأول بالغصن ووجه الشبه هو النحول واللين ، ويشبه فى الشطر الثانى عينيها وعنقها بالظبى وهو يقول فى هذه القصيدة :

طبية تسكن القلوب وترعا ها وقُمْرية لها تغريد

ومن ثم استعار الصورة الأولى من كائن فى الطبيعة ، واستعار الصورة الثانية من كائن طبيعى أيضا وهو الحمامة المغردة . وقد ورد أيضا التشبيه بالقمرية فى رثاء هذا الشاعر المصور للمُغَنِّية (بستان) :

أودى ببستان وهى حُلَّته فقد غدا عاريا من الحبَر
أطار قمرية الغناء عن الأرض فأىّ القلوب لم يطر
بستانُ ياحسرتا على زهر فيك من اللهو بل على ثمر

يا شمسَ زُهْرِ الشموس يا قمـــــر الأقمار حسنا يا زهـرة الزهـــــــر
كأنني ما طلعتِ مقبلـــــــةً علـيَّ يوما بأملح الطـــــــرر
في كفك العود وهو يُـــــــؤْذِنُ بالإحسان إيذان صادق الخـــبَر
إذ مشيكم مذكرى غناءكـــــمُ مَشْيَ الهوينى سواكن البقـــــر

ونستبين من هذه المجازات المتتابعة أن أفق الشاعر قد اتســـع ليشمل الموجودات جميعا ، فشبَّه طلعة (بستان) أيضا بالشمس والقمر ، وشبه مشيها الوئيد بمشى البقر الساكنة ، وذلك بعد تشبيه هذه المغنية الجميلة بالظبية ثم بالحمامة . ونجد مثل هذه التشبيهات أيضا في وصف جاريـــة سوداء حسناء في مجلس عبد الملك بن صالح مضيفا إليها تشبيه إهابها في لينـــه بالسمورة والدَّلق وتشبيهها وهي تنساب في مشيتها بالمُهْرة :

في لين سَمُّورةٍ تخيَّرها الغـــــرَّا ءُ أولين جَيِّد الدَّلَـــق(٥)
هيفاء زينَتْ بغصن محتضـــــن أو في عليه نهودُ معتنـــق
غصن من الآبنوس أُلِّفَ مـــــن مُؤتزر معجب ومنتطـــق
يهتز من ناهديه في ثمـــــر ومن دواجي ذُراه فـــي ورق
سمحاء كالمهرة المطهَّمـــة الدهماء تنضو أوائل السبـــق

الطبيعة الشبيهة بالمرأة

ومثلما استوحى الشعراء صورهم وأوصافهم للنساء اللاتي يتغزلـــون فيهن من الحيوانات البديعة التكوين عيونا وخصورا ، وكانت المرأة عندهم تشبـه

هذه الكائنات الطبيعية ، فقد كانت الطبيعة فى بعض أشعارهم تماثل المرأة فى حسنها وفيما يبعثه هذا الجمال فى وجدانهم من نشوة وفى أذهانهم من أخيلة بديعة ، فكأن المرأة هى الطبيعة حينا والطبيعة هى المرأة حينا آخر .

يتبدى ذلك فى وصف الربيع حيث تأخذ الأرض زخرفها وتتزين – حسب تعبير القرآن الكريم – فتغدو الطبيعة مثل المرأة الجميلة ، فهو يصف الربيع بأنه شباب الطبيعة ، ويخلع عليه من النعوت ما يوصف به المرأة . فإذا كان البحترى قد قال فى الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

فإن ابن الرومى يقول :

ضحك الربيع إلى بكا الديم وغدا يسوّى النبت بالقمم (٦)

وهو يصور الربيع مختالا كالمرأة الحسناء فى أثواب قشيبة :

مابين أخضر لابس كمم خضرا وأزهر غير ذى كمم

كما يصوره حاليا بالجواهر من كل لون يبهر العين مثل النساء الجميلات :

والروض فى قطع الزبرجد واليا قوت تحـــت لآلئ تـــؤم[٧]

إن الربيع لكالشبـــاب وإن الصيـف يكسعه لكـا لهـــــرم

وكأنما لمع السواد إلـــــى ما أحمر منها فى ضحى الرهم[٨]

حَدَق العواشق وُسّطت مُقَـــلا نهلت وعلّت من دمـــوع دم

هاتيك أو غيـلان غاليـــــة أضحت بها الوجنات فى ذمـم[٩]

ويصف روضة فى الربيع بما توصف به العروس إذ يقول :

وروضة عذراء غير عانســـــه جادت لها كل سماء راجسه[١٠]

رائحة بالغيث أو مغالســـه

فأصبحت من كل وشى لابســـه خضراء ما فيها خلاة يابسة

ضاحكة النوار غير عابســـه كأنها معشوقة مؤانســـه

تروقك النّوْرة منها الناكســـه بعين يقظى وجيد ناعسه[١١]

لؤلؤة الطل عليها فارســـه

ومن عيون قصائد ابن الرومى التى يشبه فيها أعضاء النساء بكائنات من الطبيعة (الأشجار والأزهار والثمار) قصيدته النونية إذ يشبه القـــد والأغصان ويخص منها غصون البان ، والشعور بعناقيد الكرم ، والعيـــون بالنوجس ، والبنان (أطراف الأصابع) بالعنّاب والثغور الناصعة الثنايـــا بالأقحوان :

أَجْنَتْ لك الوجدَ أغصانٌ وكثبانُ ... فيهن نوعان : تفاح ورمّانُ (١٢)

وفوق ذينك أعنابٌ مهدَّلةٌ ... سود لهن من الظلماء ألوانُ (١٣)

وتحت ذلك عنّابٌ تلوح بهِ ... أطرافهن قلوب القوم قنوانُ (١٤)

نصونُ بانٍ عليها الدهرَ فاكهةً ... وما الفواكه مما يحمل البانُ

ونرجسيات ساري الطل يضربه ... وأقحوان منير النَّوْرِ ريّانُ (١٥)

أُلِّفن من كل شيءٍ طيِّبٍ حَسَنٍ ... فهن فاكهة شتى وريحانُ

لقد رأى الشاعر لكل موطن جمال حسي في المرأة نظيرا له في الطبيعة، فرسم تلك اللوحات الفنية بريشة فنان تشكيلي عبقري بما عرف عنه من تمثل واستيعاب لكل منظر يسبي العين في الطبيعة والمرأة على السواء ، واستقصاء للصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به بما لايدع بعده قولا لقائل كما كتب عنه النقاد القدامى ، فهو شاعر لماح لاتفوته شاردة ولا واردة، قادر على الربط بين الظواهر والكشف عن جوانبها الخفية في عالم الإنسان وسائر الكائنات من حيوان ونبات وأطيار .

ويبدع ابن الرومي في تلوين لوحاته ، ولكل لون في الطبيعة عنده مثاله في المرأة ، بل إن اللون الواحد له عدة درجات ، فشعور النساء الحسناوات مثل الأعناب (سود لهن من الظلماء ألوان). وليربعد ذلك دليل على رهافة حاسته البصرية في المعرفة والإدراك ، بل إن حواسه الأربع الأخرى في مثل هذه الرهافة كما نتبين من أوصافه ، فهو يصور المنظور والمسموع والمشموم والملموس والمتذوق باللسان . وكأنه في تصويره خبير في علم الأحياء ودارس للفنون الجميلة في نفس الوقت .

وبلغ ابن الرومى الذروة فى الشاعرية حين يصف الأرض فى فصل الربيع ويشبهها بالمرأة الساحرة بحسنها ، وذلك فى قوله :

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدت للذكر

وبعد ، فإن ماأوردناه من نصوص شعرية فى المرأة الطبيعة والطبيعة المرأة لايعد وأن يكون غيضا من فيض ، وهو قدر كاف للدلالة على أن الشعر ديوان العرب بمعنى أنه كنز معارفهم ومآثرهم ، وأنهم كانوا جميعا شعراء كما قالت المستشرقة الألمانية (هونكه) فى كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) . كما تدل هذه النماذج على عاطفة الحب القوية عندهم كما ألمحنا فى صدر هذا المقال ، وعلى قدرتهم الفذة فى تصوير هذه العاطفة المتمثلة فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى تشبيه النساء بأجمل ما فى الطبيعة من كائنات ، وتشبيه الطبيعة بالمرأة الحسناء .

*

هوامش :

(١) يعبر شاعر قديم عن هذا التقليد بقوله : إذا كان شعر فالنسيب المقدم .

(٢) بلغ من إعجاب بعض الشعراء الأوربيين بقصة مجنون ليلى وأشعاره أن أحدهم وهو الشاعر الفرنسى لوى أراجون أطلق على ديوانه الذى أوحت إليه به حبيبته الزا (مجنون ليلى) اسم الزا .

(٣) كتب الشاعر عزيز أباظة رواية مسرحية بعنوان (قيس ولبنى) .

(٤) البين : الفراق ، ومن المترادفات أيضا النوى .

(٥) السَّمُّور : حيوان ثديٌ ليلى يُتخذ من جلده فرو ثمين .

(٦) الدِّيَم : جمع ديمة وهى السحابة الممطرة أو المطر يطول زمانه فى سكون .

(٧) ثُوَم : توائم .

(٨) الرَّهَم : المطر الخفيف .

(٩) خيلان : جمع خال ، والخال شامة سوداء فى الوجه . غالية : أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر . ذمم : جمع ذمة وهى العهد والأمان والحرمة .

(١٠) راجسة : ماطرة .

(١١) ناكسة : مائلة .

(١٢) الأغصان : إشارة إلى القدود ، والتفاح : الخدود ، والرمان : النهود .

(١٣) كرم الأعناب : إشارة الى مسترسل الشعور .

(١٤) العناب : البنان المخضوب .

(١٥) النرجس : إشارة إلى الأعين ، الأقحوان : إشارة إلى الثغور الناصعة الثنايا .